

المسلمون السود

تاريخهم ونظمهم وعقائدهم

نور و بيرغر

من اولى الحركات التي سبقت حركة المسلمين السود وركزت على التربة و افريقيا ، حركة « الاتحاد العالمي لتحسين الزوج » ، التي اسسها ماركوس غارفي في ١٩١٤ . وقد نجح هذا الزعيم الزنجي الذي رأى النور في جايكا في السيطرة على نخلة جامهير الزوج في اجزاء كثيرة من المعمورة وكان ذا اثر فعال في امريكا . وما زال عدد كبير من الامور التي نادى بها يستهوي الجماعات المسلمة القومية اليوم . وكان غارفي علمانياً كليةً في مزاجه ، وهاجم المسيحية لعجزها عن حماية الزوج ضد ما يتعرضون له من انتهاب واغارات . ومع انه تلقى معلوماته عن تاريخ افريقيا وحضارتها على يد مسلم مصري ، الا انه لم يشدد على المواضيع الاسلامية مطلقاً . بل ظل علمانياً ، وان يكن قد كتب مقالات عديدة في جريدته « عالم الزوج » عن التراث الزنجي الحضاري العظيم ، الذي ضم اليه مصر القديمة وعرب القرون الوسطى . وحذر غارفي الزوج من مجتمع البيض الحديث ، تماماً كما يفعل المسلمون السود اليوم ؛ قال : « ان لم يأخذ الزنجي حذره فانه سيبتلع كل ما في المدنية الحديثة من سموم وسيموت نتيجة لذلك » . وقال ايضاً : « ان عالم البيض حاول على الدوام ان يسرق منا تاريخنا وان يصمه بالعار . لكن كل دارس للتاريخ ذا نظرة محايدة يعرف ان الزوج كانوا يوماً ما يحكمون العالم » .

في الوقت الذي كانت حركة غارفي العلمانية على اشدها فيه كانت هناك حركات دينية قومية كثيرة تنادي بالاسلام وتجذب زوج امريكا . فقد نجحت حركة الأحدية ، التي انبثقت أصلاً عن الهند في القرن التاسع عشر ، في كسب بعض اهالي شيكاغو اليها ، وهي المدينة التي كان يلجأ اليها غالبية الزوج من الولايات الجنوبية .

غير ان اول جماعة مسلمة تبشيرية مهمة في هذا القرن كانت « معبد العلوم العربية في امريكا » الذي اسسه قبيل الحرب الاولى زنجي من ولاية كارولينا الشمالية اسمه تيموثي درو . وقد وصف نفسه بأن النبي محمد قد تجسد فيه ، واقام معبده في نيوارك في ١٩١٣ ، ووصل ذروة نفوذه بعد ذلك بعشر سنين في شيكاغو ، حيث كانت الظروف تبدو مواتية لمثل هذه الحركات اكثر منها في سواها . وغير اسمه الى الشريف درو علي ، وعلم

الزواج بأنهم ليسوا سود اللون ولكنهم الاحفاد السمر للعرب وللمؤابيين القدماء . واصدر قرآناً ألفه من اجزاء من القرآن الحقيقي ومن التوراة ومن اقوال ماركوس غارفي ومن الحكايات التي تروى عن المسيح ومن آرائه هو . واتخذت هذه الطائفة يوم الجمعة يومها المقدس ، وكانت تتلو الصلاة ثلاث مرات كل يوم باتجاه الشرق . وقد احتفظ المسلمون السود بكثير من عادات هذه الطائفة مع تعديلات طفيفة . وغيروا اسماءهم و اضافوا اليها اسماء عربية ، ولبس كثير منهم الطرايبش واطلقوا الحاهم . وحرم الشريف درو علي السينا والرقص والتجميل وتزيين الشعر والمشروبات والتدخين . وحاول جماعته انشاء مدرسة واقاموا مؤسسات تجارية صغيرة خاصة بهم .

وشدد الشريف ، كما فعل زعماء المسلمين السود من بعده ، على الناحية الصحية . وفي سنوات العشرينات اتسعت الحركة بسرعة والى حد كبير بحيث عجز الشريف درو علي ، الذي كان يسير الثقافة وقليل الاختبار في التنظيم ، عن ادارة جميع المعابد في مختلف المدن . وفي ١٩٢٩ حاول احد كبار رجاله احتلال مكتبه فقتل ، واعتقل درو . وبعد اطلاق سراحه بأسابيع قليلة مات دون ان تعرف اسباب موته . فانشقت حركته الى حركات متعددة ، ولم يبق لها اثر الا في معابد صغيرة في ولايتي كونكتيكت وكنتيكي . كان من جملة اتباع درو رجل اسمه و. د. فرد. ومع ان ايليا محمد اخبرني انه لم تكن لفرد أية علاقة قط بدرو ، الا انه اقام طائفته الخاصة « امة الاسلام » او « معبد الاسلام » - التي انبثقت عنها بشكل مباشر حركة « المسلمين السود » الحالية . يقول ايليا محمد : « سألته من انت ، وما اسمك الحقيقي ؟ فأجاب : انا الذي كان العالم يترقب مجيئه طوال الألفي سنة الماضية . وسألته ثانية : ما اسمك ؟ فقال : اسمي المهدي ، انا الله ، وقد جئت لأهديكم الى الصراط المستقيم » .

هناك من يزعمون ان فرد من مواليد قريش ، قبيلة الرسول العربي ذاته . والواقع انه كان بائعاً متجولاً ينقل بضائعه من بيت لبيت في دترويت في اوائل العقد الرابع . وكان يدخل بيوت الزوج فيروي لهم حكايات عن الامصار القاصية التي جاءوا منها اصلاً ، ويحذرهم من تناول المأكولات التي اعتادوا ان يقتاتوا بها ، ويعلمهم القرآن . ثم اقام « جامعة للاسلام » ليحارب « خداع » البيض للزوج ويعلمهم المواضيع العامة وبصورة خاصة الرياضيات التي هي سلاحهم ضد خداع البيض .

ولما اختفى في ١٩٣٤ بدون اثر انشقت حركته وتولى ايليا محمد (الذي كان اسمه

الأصلي أو « اسمه في العبودية » ايليا بول) رئاسة طائفة من الحركة هي الطائفة التي ظلت امينة لتعاليم الحركة (بأن الزنجي هو الانسان الاصلي ، وان البيض ابالسة ، وان على المسلمين ان يغيروا « اسماءهم في العبودية » وان يتجنبوا أكل بعض الأطعمة) . وكانت هذه السنوات سنوات ركود وهبوط اقتصادي وسنوات عراك وتغيرات اجتماعية هائلة في صفوف الزوج الذين ترك ملايين منهم الجنوب والتربة وتوجهوا شمالاً الى المدن . خلال هذه السنوات ظلت « امة الاسلام » طائفة صغيرة تقوم على ثلاثة اسس : دين جديد ، وقومية افريقية سوداء ، واحتجاج على الاستغلال . وقد نالت مزيداً من الشهرة في سنوات الخمسينات نظراً لنمو حركة المساواة في صفوف الزوج ولبراءة زعماء الحركة وللحس البارع الذي كان لهم بالعلاقات العامة .

يطرح المسلمون السود على الزوج مشكلة عميقة هي مشكلة هويتهم ومكانتهم في امريكا وفي العالم . وهذا صحيح بالنسبة للزوج الشديدي الثقافة كما هو صحيح لأفلمهم علماً ، ولأصحاب المصارف كما هو للمعوزين ، بالرغم من ان الذين هجروا المسيحية الى الاسلام هم في اكثر الأحيان من الطبقة الأقل دخلاً والاصغر عمراً والأيسر علماً وثقافة . وهم يهتمون بالطقوس والاحتفالات ، شأنهم بذلك شأن كافة الأديان . وتبدأ اجتماعاتهم العلنية في العادة بلعب قطع موسيقية افريقية مسجلة ، تعقبها احياناً فرقة زنجية تلعب الجاز الحديث . ولا يلبس المسلمون الملتزمون ملابس رسمية ، وان كانوا يلبسون ملابس مميزة تفرقهم عن سواهم . وقدار الاجتماعات يهدوء وباقتدار ، ويبدأ كل متحدث حديثه قائلاً بالعريضة (ولكن بلهجة امريكية صميعة) « السلام عليكم » ويرد المستمعون عليه التحية « وعليكم السلام » . وهؤلاء المتحدثون هم في العادة شيوخ المساجد ، لكن كثيراً ما تعطى الكلمة لسواهم من زعماء الزوج . وقدور أحاديثهم على المواضيع المعهودة : استغلال الزوج ، وفراغ صبرهم ، والحاجة للانفصال ، وشرور البيض وطبيعة السود الطبيعية . وتختتم الاجتماعات بوقوف الجمهور لتقبل البركة التي تعطى من على المنبر ، ويباركهم الشيخ بمزيج من آيات الفاتحة وغيرها من الصلوات ، وبالنأكد بأن ايليا محمد هو مبعوث الله .

« نحن افضل جميع البشر »

يمكن ان نفهم المسلمين السود خير فهم اذا نظرنا اليهم كرد فعل للصورة التقليدية التي

في اذهان البيض عن الزواج . فقد كان الزنجي الامريكي لمئات خلت من السنين يتلى على سمعه بأنه جزء من طبقة دنيا من البشرية ، وكان مقامه في المجتمع الامريكي يبدو تثبيتاً لهذا الرأي . لذا نرى المسلمين يقولون للبيض : « انكم لا تقبلون بنا كمساوين لكم ، وتفرقون بيننا وبينكم . حسناً اذاً ، فلنفترق - لكن فلنفترق كلية » . وهم يعكسون كل ما يقول به انصار التفوق من البيض : فهم يرفضون التفرقة كمرحلة املاها تفوق البيض ، وهم يرفضون الاندماج لأنهم يعتبرونه مستحيلاً وفي الوقت ذاته غير مرغوب فيه خشية ان يتلوث السود نتيجة لامتزاجهم بالبيض . فالف في زعمهم اسود ، والانسان الاصلي اسود ، واعظم اسهامات المدنية تمت على يد السود ، والاسود هو الطاهر والنقي . اما الابيض فهو على نقى ذلك قدر ومدنس ، والبيض جنس مطعم لا اصيل ، وهم نزقون شديداً الجبل للحروب .

ان فكرتي التفرقة ورذالة البيض هاتين مترابطتان متشابكتان . وثمة فكرة ثالثة تماشيهما ، هي انه ينبغي على الزواج ان يكونوا مثيقيين وحذرين من خداع البيض ، كما ان ثمة شعوراً تشترك فيه معظم فئات الزواج اليوم ، بأن عليهم ان يتسلخوا هم زمام صراعتهم . قال ايليا محمد لأتباعه : « لقد أجبر الشعب الاسود في امريكا طوال سنين عديدة على الشعور بأنه لعنة سماوية ما ... يجب الا تظنوا انكم كذلك بعد اليوم . نحن ، امة الأرض السوداء ، مالكو الارض رقم واحد ، وافضل جميع البشر . انكم اكثر الناس قوة وجمالاً وحكمة » .

ويبدو ان هذه التعاليم تمكن افراد « امة الاسلام » من قبول هويتهم كزواج وايضاً من قبول مكانتهم في المجتمع الامريكي . ولما كانت المساواة الاصيلية عن طريق الاندماج في كل مرفق من مرافق الحياة تظهر متعذرة التحقيق ، فان المسلمين يرفضون الفكرة من اساسها ويجدونها غير مرغوب فيها . وبدلاً من ذلك فانهم يرون ان مهمتهم ، كما اخبرني ايليا محمد ، هي تهيئة زواج امريكا الشمالية للانفصال والحكم الذاتي ، وذلك عن طريق تعليمهم النظافة واعالة انفسهم والشعور بالحب والاحترام لآخوانهم السود ، لا لأعدائهم البيض . وتفرق « امة الاسلام » (كحركة تشدد على الخلاص عن طريق اعتناق الدين) تفرقة جذرية بين الذين يقبلون الايمان وبين المؤهلين لقبوله لكنهم يقاومونه حتى الآن . فالسود هم « اكثر الناس تقوى وجمالاً » ، لكن « المسمين زواجاً » الذين ما زالوا خارج الحظيرة هم قوم يأكلهم كرههم لأنفسهم وهم في الواقع على قدر كبير من الانحطاط .

قال لي مالكولم اكس ذات مرة: « ان معظم الاشياء السيئة التي يقولها البيض عن الزوج ليست اقوالا اعتادوا وصمم بها : انها اشياء حقيقية » . وقال ايليا محمد موبخاً جمهوراً كبيراً من مستمعيه : « كفوا عن استجداء البيض العناية بكم . انتم كسالى ، لا تريدون ان تفعلوا شيئاً لأنفسكم . لن انحي باللائمة دائماً على البيض : سأنحي بها عليكم احياناً » . وقال مرة مؤنباً الذين لم يروا النور بعد : « ان رب العبيد يحقر ذاته ان جعل الشعب المستعبَد الذي لا يملك شيئاً مساوياً له » .

ويهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بامتلاك « شيء » ما . فلكي يقضوا على الضعف والاعتماد على الغير ، الناتجين عن عدم امتلاك شيء ، يدعون الى توظيف الاموال التي يكتسبونها الزوج في الخازن والمصانع بغية تنمية ثروتهم .

ومع ان حركة المسلمين السود تحتذب في ظن البعض الفقراء وغير المتدربين بدرجة رئيسية ، الا انها تتخذ مثلاً أعلى لها غطاءً هو نط الطبقة الوسطى . ومن المفارقة ان التعليم البروتستانتي القائل بالتوفير والجهد اصبح شائعاً ومعمولاً به لدى الزوج الذين هجروا المسيحية البروتستانتية . غير ان برنامج ايليا محمد المسمى « برنامج من اثنتي عشرة نقطة لخلاص وانقاذ الزوج الامريكيين » ذو صبغة كلفينية امريكية محضة . وكثير من الصور في منشورات « امة الاسلام » تشدد على موضوع الوقار الذي تنسم به الطبقة الوسطى .

مظاهر عنف وتشوق لامتلاك اراضي

غير ان هذا التمسك بقيم البورجوازية الحضرية لا يقلل من تشوق هذه الفئات القروية الى امتلاك الاراضي . فطلبها قطعة من الارض هو تعبير عن رغبتها في سبيل للعيش وفي الحصول على رقعة من الارض تمتلكها في الوقت نفسه . وهو ما تطالب به بأعلى صوتها في كل اجتماع من اجتماعاتها وفي كل منشور من منشوراتها .

قال ايليا محمد في خطاب رئيسي له قبل عدد من السنين : « اننا لا نطالب بأرض كانت أصلاً للشعب الاوربي . اننا نطالب بالارض التي كانت أصلاً لنا . سنحصل على مكان في هذا الكوكب نستطيع ان نسميه ملكاً لنا ... لن نقعد في انتظار موسى ما ليحيى ويخبرنا انه سيقودنا الى ارض موعده . ان التربة هي ارض موعداً وسنأخذ جزءاً منها » .

لم يقل المسلمون قط أي شيء بالتدقيق عن موضع هذه الأرض الجغرافي أو عن طريقة تملكهم لها ، وغالباً ما يحيل الناطقون بلسانهم السائل الى ايليا محمد ، أو يؤكدون ان الله سينزل الدمار بالبيض وسيكافئ السود بطريقته هو . هذا الغموض والتكرار بأن المسلمين « سيأخذون » الأرض أو « سيستولون عليها » - مضاف اليه تأسيسهم جماعة عسكرية غير مسلحة تسمى « ثمرة الاسلام » - قاد الى اتهامهم بأنهم يؤمنون بالعنف طريقاً لتحقيق غاياتهم .

يبدو للمراقب ان المسلمين يهتمون بالعنف في وقت تشدد فيه كثير من الحركات الزنجية الاخرى على طرق الاحتجاج السلمية . ويعمد خطبائهم الى استثارة جماهير مستمعهم الغفيرة بالتنبؤ عن المصائب التي توشك ان تحل بمحضارة البيض . وهم غالباً ما ينبهون المستمعين الى ان لكل انسان حق الدفاع عن نفسه ، والى انهم يرفضون طرق الاعتراض السلمية . قال مالكولم اكس في خطاب علني : « ان ديننا لا يعلمنا ان ندير الوجه الآخر . ان الاسلام يعلمنا ان ندافع عن انفسنا » . وقال مرة في اذاعة تلفزيونية : « ان امريكا ذاتها ضد المقاومة السلبية . عندما هاجم اليابانيون بيرل هاربور لم تلجأ امريكا الى المقاومة السلبية » .

ويعنى المسلمون السود في الوقت ذاته عناية كبيرة بأن يظهروا ان اهدافهم سلمية وانهم لا يحملون سلاحاً . وهم يفتشون جميع الذين يحضرون اجتماعاتهم الدينية وسواها . وعندما يقترب احد خطبائهم في حديثه من موضوع العنف ، فانه يضيف عادة ان الاسلام ينادي بالسلم .

اذاً لماذا انشأوا « ثمرة الاسلام » ؟ تتألف هذه الجماعة من اكثر اعضاء « امة الاسلام » التزاماً عاطفياً وكفاءة جسمانية ، ويقول المشرفون عليها ان القصد من البرنامج التدريبي هو خلق عقول وأجساد عامرة بالصحة بين المؤمنين ، لكن هؤلاء الشبان الأقوياء يبدو ان لهم مهام عديدة اخرى . فهم يحرسون زعماء الحركة ويحمونهم من البيض الغاضبين ومن الفئات المنافسة لهم على السواء ؛ وهم يصفون على الطقوس الدينية جواً من الانضباطية ؛ وهم يبعثون في الطوائف الزنجية الاخرى الهيبة لما للمسلمين السود من قوة جسمية جاهزة ؛ وبأماكنهم ان يشكلوا يوماً ما في المستقبل قوة بوليس داخلية لهذه الجماعات ، فيملأون الفراغ الذي يشغل نتيجة رغبة الشرطة في عدد من المدن بترك الاحياء الزنجية حرة تتماهى في رذائلها وجرائمها ما دامت لا تمتد وتنطلق الى احياء البيض ؛ واخيراً فان

« ثمة الاسلام » تظهر ما يمكن تحقيقه عن طريق الايمان والنظافة وتجنب المأكولات الرديئة التي يحبها « المسمون زنجاً ».

ومع ان المسلمين السود يظهرون مستعدين للعنف الا انهم قلما استعملوه ، بل انهم حينما استعملوه كان ذلك يحدث عندما كانوا يهاجمون او عندما كانوا يعتقدون ان حقوقهم الشرعية قد اغتصبت . واعتقد ان رغبتهم العميقة باظهار ضبط النفس واطاعة القوانين وتسفيه سائر الأوصاف التي اعتاد البيض وصف الزنوج بها ، يجعل احتمال لجوئهم عن قصد وتعمد الى العنف قليلاً جداً .

ويرفض المسلمون السود اعطاء أية معلومات عن عدد افراد حركتهم ، ويكتفون بالقول انهم كثيرون وانهم في ازدياد مطرد . وهم لا يسندون اي حزب سياسي أو أي مرشح ، وموقفهم تجاه الشرائع هو موقف اللامبالاة لأنهم يعتقدون انها جميعها عديمة الجدوى . ولا يعتقدون أية مفاوضات مع جاليات البيض أو مع السلطات الحكومية بخصوص القضاء على التفرقة العنصرية ومشاكل السكنى والمدارس والوظائف وما شاكل . وتعتمد قوتهم في الواقع على مقدرتهم تجنب أي اختبار علني لها .

لكن قياس القوة لا اهمية له في حركة « كأمة الاسلام » . فمثل هذه الحركة الدينية يجب ان يحكم عليها بناء على ما تفعله لأفرادها المختلفين وعلى المثال الذي تضعه ويحتذيه الآخرون . وتشير جميع الدلائل ان للمسلمين تأثيراً كبيراً على الملزمين منهم التزاماً عميقاً . وافراد الحركة يتمسكون بالقوانين ويحترمون انفسهم ويعملون بجد ويتصفون بالاستقامة الخلقية . وكثيرون منهم وصلوا هذه الحال على الرغم من ظروف غير مؤاتية ، وبعضهم على الرغم من سوابق اجرامية ومن صرفهم وقتاً في السجون (والواقع ان كثيراً من الزنوج احتكوا احتكاكاً مبائراً بتعاليم ايليا محمد لأول مرة وهم في السجون) . ومن الصعب درس المثال الذي يضعونه في حياتهم الخاصة وفي تكرسهم « لأمة الاسلام » ، لكن الذين يشاهدون هذا المثال يعرفون قدره . بل ان تأثيرهم هذا على الآخرين هو ابرز مميزاتهم . ومع انهم لا يشاركون في الكفاح في سبيل الحقوق المدنية الا انهم يؤثرون فيه بطرق اخرى : فهم يثيرون حماساً تشعر به المنظمات الزنجية الاخرى ؛ زد على ذلك ان الاهتمام البالغ الذي توليه الصحافة والراديو والتلفزيون للمسلمين السود يشجع زعماء المنظمات المطالبة بالحقوق المدنية على اتخاذ موقف اكثر شدة وتصلباً ؛ واللجنة « المتطرفة » التي يستعملها المسلمون تجعل البيض اكثر استعداداً للتفاوض مع الفئات « المعتدلة » ، وهذا الاستعداد

يشجع بدوره ممثلي الزوج على المطالبة بأكثر .

من الصعب تقدير الاثر المباشر « لأمة الاسلام » على زواج امريكا . فمن حيث قوتهم العددية جرت عادة المراقبين ان يقدروها بما بين مائة الف ومائتي الف ، لكنني اشك في ان عدد الافراد الملتزمين كان في ابي وقت من الاوقات يزيد عن الخمسين ألفاً ، مع ان هناك عدداً اكبر دخل هذه الحركة وخرج منها ولعله ما زال قريباً منها . لكن اذا كان الزوج لا يسارعون للالتحاق بالمسلمين فانهم مع هذا يحترمونه ؛ والزواج الذين لا يلتحقون بالمسلمين لا يلتحقون بمن يوجهون اليهم الانتقادات .

ومع هذا كله فان غالبية الزوج يبدوون لا مباليين « بأمة الاسلام » كدين ، ولا يجدون فيها حلاً حقيقياً لمشاكلهم . فانما هم الزوج الذين يشعرون انه ليس ثمة حل يرتجى من المفاوضات والتشريعات والسبل « المعتدلة » التي تلجأ اليها الجماعات المطالبة بالحقوق المدنية - انما هم هؤلاء الذين يستهويهم المسلمون اكثر من سواهم . فمع ان المسلمين لا يقدمون أملاً بحلول بالمعنى المتعارف عليه (بالدمج ، او على الاقل بالقضاء على التفرقة) فانهم يقدمون حلاً للافراد الذين يجدون في هذا الدين والموقف طريقاً لتكثيف انفسهم مع مجتمع يعمل على اقصائهم عنه . كما ان قرارهم بتجنب كل اتصال بعالم البيض يزيح عن كاهل الزوج العبء الثقيل ، عبء محاولة انتزاع حقوق مساوية من اناس ليسوا على استعداد لأن يمنحهم اياها .

كما ان هذه الحركة تعطي كثيراً من الزوج سبيلاً لبث شعورهم نحو مجتمع البيض المعادي ولكبح جماحه في الوقت ذاته . فالطقوس التي يستعملونها ، والهجومات اللفظية العنيفة على البيض ، وعرضهم لقوتهم ، كل هذه تهبهم شعوراً بالقوة والمغامرة يمتص منهم النزعات التخريبية . فهم يبقون دائماً داخل نطاق الاحياء الناجية ، فيما عدا ممثلهم القليلين الذين يرسلونهم احياناً للخارج . ومن هذه الأماكن المألوفة عليهم يقذفون عالم البيض البعيد بسبابهم واهاناتهم وتهديداتهم المبهمة ، وهم محاطون بمستمعيهم السود ، المحاطين « بشرة الاسلام » ، المحاطين بدورهم بأفراد الشرطة البيض . لكن انصياع الحركة للقانون واصرارها على ان يبقى الزوج في احيائهم يبعثان شعوراً بالامن وبالهدوء .

ورغم رفض المسلمين لمجتمع البيض في امريكا ، يظل جهادهم جهاداً غير سياسي ، ويتخذ طابعاً دينياً . بل ان الهدف الذي يصبون اليه باقامة دولة منفصلة للزوج ، رغم انه يبدو هدفاً سياسياً ، يأخذ صبغة دينية . فعندما سئل مالكولم اكس في مقابلة تلفزيونية عن

هذا الهدف « السياسي » أجاب : « اننا نراه كما رآه موسى امرأ دينياً ان نفصل بين العبيد وارباب العبيد . ان المسيحيين واليهود على السواء يرون الآن في موسى زعيماً دينياً لا سياسياً » .

الله الاول الاسود وخلفاؤه ورسوله

ورغم قول ايليا محمد بالاسلام ، فانه من الجلي انه يعتبر نفسه كموسى اكثر منه كالنبي العربي . فالاسلام الذي يبشر به هو للزنوج الامريكيين لا لسواهم . وتعاليمه الدينية استمدتها بصورة شخصية ، كما قال لي ، من و . د . فرد - اي من الله .

هذه التعاليم لا يجري ذكرها قط للجمهور بشكل منطقي مرتب ، مع ان المقربين منه يُعطون بعض المنشورات والمخطوطات التي تحتويها . وكثير من هذه التعاليم ، كما تعبر عنها مقالات ايليا محمد وكما عبر عنها هو لي عندما قابلته في بيته في شيكاغو في الصيف الماضي ، محيرة ويصعب توضيحها لغير المؤمنين .

قال لي ان « أمة الاسلام » تؤمن بعدد من الآلهة خلف واحد من الآخر بعد الله الاول الاسود ، ذلك الكائن الاسمى الذي خلق الكون قبل ٧٦ تريليون سنة . وقد جاء بعده خلفاء له ، لكن ليس بينهم من يساويه مرتبة . وكان و . د . فرد آخر الآلهة ، وايليا محمد هو رسول الله . وقد قامت بين ايليا محمد وبين فرد صلة وثيقة في دترويت من ١٩٣٠ الى ١٩٣٤ وتلقن الاسلام عنه . ومجيء فرد يحقق نبوءتين : النبوءة المسيحية عن مجيء المسيح الثاني ، ونبوءة القرآن عن مجيء المهدي . قال ايليا محمد : « لقد كنت في حضرة الله اكثر من ثلاث سنين ، وقد تلقيت ما اعلّمه مباشرة من فمه » . وايضاً : « اعتقد اني اول انسان وكل اليه الامور وجهه الله شخصياً . ان كنت كاذباً فاني اعطيك عشرة آلاف دولار » . هذه العقيدة تناقض الاسلام التراتي ، الذي يؤمن بإله واحد لكافة الازمان ورسول واحد لله هو النبي محمد .

وقال لي ايليا محمد ان القمر انشق عن الارض قبل ٦٦ تريليون سنة ، ثم جاء الجنس الاسود من الرجال والنساء الذين كانوا البشر الاصليين والاولين ، وكان دينهم الاسلام وأسسوا مدينة مكة المقدسة . وكان من بينهم اربعة وعشرون عالماً حكيماً على قسط

كبير من المعرفة والبأس . وقبل خمسة وخمسين الف سنة اختلف احد هؤلاء العلماء مع اقرانه وأنشأ قبيلة خاصة من السود كانت قوية وصلبة ، افتتحت فيما بعد ادغال آسيا الشرقية وأثبتت بين سكانها الهدوء . من هذه القبيلة ينحدر الزنوج في الولايات المتحدة ، وهم « أمة الاسلام الضائعة الموجودة في براري امريكا الشمالية » . وحدث قبل حوالي ٦٦٠٠ سنة ان كان الله شخصاً اسمه يعقوب ، وكان يعرف كيف ينشئ الاقوام بطريقة علمية . ولد على بعد عشرين ميلاً عن مكة ، في زمن كان فيه سبعون بالمائة من الناس راضين وثلاثون بالمائة غير راضين . ولد يعقوب من الثلاثين بالمائة غير الراضين ، « وولد لكي يبعث الاضطراب ويقضي على السلم ويرتكب القتل » . نال قسطاً كبيراً من الثقافة ، « وكان له رأس اكبر حجماً من العادي بكثير ، ولما بلغ الثامنة عشرة كان قد أنهى جميع كليات بلده وجامعاتها وكان يدور في شوارع مكة يبشر ويهدي الناس » .

أقلق يعقوب السلطات ، فسجنته هو وأتباعه ونفته الى جزيرة باتمس - وهي الجزيرة التي يعتقد ان يوحنا تلقى فيها الرؤيا التي تشكل السفر الاخير في العهد الجديد : وقال لي ايليا محمد انه ربما كان يعقوب ويوحنا الشخص ذاته . وقرر يعقوب عدو الله ان يخلق جنساً جديداً من البشر يكون ابيض اللون رغم انه كان هو اسود . لكنه لم يكن بوسع ان يخلق بيضاً من السود مباشرة بل على مراحل متعددة . فخلق من السود جنساً اسمر اول الامر ، واستغرق هذا مائتي سنة ، لم يبق لديه من بعدها مادة سوداء لاستعمالها . فقضى مائتي سنة اخرى خلق فيها جنساً احمر من الاسمر ، وبعدها لم يبق لديه مادة سمراء . فصرف مائتي سنة اخرى خلق فيها الجنس الاصفر من الاحمر ، ولم يبق له بعدها مادة حمراء . واخيراً وبعد مائتي سنة اخرى (أي قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة) خلق جنس البيض من الصفر . وهذا الجنس كان يختلف اختلافاً كلياً عن سواه لأنه كان الوحيد الذي لم تكن فيه مادة بيضاء مطلقاً والذي لم يكن مسلماً بطبيعته .

وقال ايليا محمد ان البيض كانوا سلالة من الشياطين ، وكانوا متوحشين وعراة ، لا يشعرون بنجل ، غزيري الشعر ، يشبهون الحيوانات ويمشون على الاربعة ويعيشون في الاشجار . وبعد ألفي سنة أقام الله موسى لكي يمدّن سلالة البيض هذه ولكي يجعلهم يحكمون العالم كما أرادهم يعقوب ان يفعلوا . فعلمهم موسى ان يأكلوا السمك يوم الجمعة بدل اللحم ، وهي عادة ما زال كثير من البيض يمارسونها حتى اليوم . لكن موسى نفسه وجد مهمته عسيرة . وقدر لسلالة البيض هذه ان تحكم مدة ٦٠٠٠ سنة - حتى الوقت الحاضر . ومن ثم

« فسينبعث من أمة السود الأصلية واحد ستكون حكته ومعرفته وقوته غير متناهية ». وهذا « الله الأعظم والأقوى » ، الذي ظهر على الأرض بشكل و. د. فرد ، سيدمر عالم يعقوب بأسره وسيعيد الى السود مكانتهم الشرعية كحكام للكون . وكان الله قد شاء ان يجلب بعض السود كعبيد الى امريكا الشمالية بقصد ان يفهموا ويعرفوا انفسهم فهماً ومعرفة أفضل . وكان عليهم ان يظلوا عبيداً مدة ٤٠٠ سنة تلتتهي في ١٩٥٥ . وهذه النبوة تقترب الآن من التحقيق تبعاً لتوثب السود في جميع انحاء العالم ولقضاء الله على مدنية البيض بتدمير ذاتها بذاتها . وعندما يحكم السود الأرض فانها ستصبح هي السماء بدلاً من الجحيم — لأن الله « قد اوضح ما الذي يكون السماء على الأرض : الحرية والعدالة والمساواة ، والمال والبيوت الصالحة والصدقة في كل مرافق الحياة » .

هذا المزيج من الاسلام التراثي والمسيحية واليهودية يقصد منه تشجيع السود على الشعور بالكبرياء لسوادهم . وهو يشبه لحد كبير تعاليم الطائفتين الاسماعيلية والدرزية ، وخاصة من هذه النواحي : السرية ، وافشاء التعاليم للمقربين فقط وعلى مراحل ، والايمان بتعاقب تجسّدات الله ، ودورات التاريخ ، والتشديد البالغ على مجيء المخلص . كما ان المسلمين السود يشاركون الدروز والاسماعيليين في اهتمامهم بالعلوم الغامضة الخفية وبسحر الارقام . صحيح ان كلا من هذه النواحي توجد في ديانات اخرى ، لكن العناصر التي اختار المسلمون السود قبولها توحى بأن و. د. فرد ، او الرجل الذي لقنه ذلك ، كان هو نفسه درزياً او اسماعيلياً . فعندما كان يجمع اتباعاً له في درويت في اوائل الثلاثينات كان فيها مئات من الدروز جاؤوها من سوريا . لكن مهما كان اصل فرد من حيث الدين او القومية ، فان طابعه العنصري له تفسير ممتع . فقد اخبرني ايليا محمد ان فرد لم يكن اسود لكنه كان نصف اسود ونصف ابيض : وذلك ليتمكن من ان يقبل به السود في امريكا وان يتزعمهم ، وفي الوقت ذاته ليتمكن من التنقل بين البيض دون ان يكتشفوه ، بقصد ان يتفهم اعداء السود (وقد اتخذ كلمة فرد العربية اسماً له دلالة على فرادته وبالتالى على ألوهته) .

موقفهم من الأديان الاخرى

ان ايليا محمد بوصفه مسلماً لا يرفض العهد القديم والعهد الجديد رفضاً تاماً ، بل يعتبر

التوراة مجموعة من الأفكار والقصص والاساطير والامثال والافكار الاخلاقية ، بعضها يمكن استثماره وبعضها لا يمكن ؛ غير انه لا يتردد عن انتقاد التوراة على اساس انها غير معقولة (وهذا مدعاة للاستغراب في حاله هو) . اما العهد الجديد ، الذي نشأ عليه معظم المسلمين السود ، فانهم يعرفونه احسن مما يعرفون العهد القديم او القرآن . ومع ان معظم اشاراتهم هي اليه ، فان هذا لا يمنعهم من رفض المسيحية رفضاً قاطعاً . قال ايليا محمد في خطاب رئيسي : « خذوا كل هذه التعاليم المسيحية التي أعطونا اياها والقوها في برميلهم للزبالة » .

اما موقف « امة الاسلام » من اليهودية فيبدو غامضاً احياناً ومحملاً اكثر من تفسير ، لكنه عدائي في العادة . وايليا محمد ، كما قلت ، اشبه بموسى منه بالمسيح او بالنبي محمد . وهو يشدد على المهمة التي انيطت به لأن يقود المسكين زنوج امريكا من « براري امريكا الشمالية » كما فعل موسى في القديم .

لكن في اليهود ثلاث نقائص : اولها انهم بيض ؛ والثانية ان عدداً كبيراً منهم هم من الملاكين واصحاب الدكاكين في الاحياء الزنحية الفقيرة ، وعلى هذا فان المسلمين السود غالباً ما يتخذونهم هدفاً لهجاتهم ؛ وثالثاً لما بين العرب والمسلمين وبين اليهود في فلسطين من عدااء . ويعلم المسلمون السود احياناً عن تضامنهم سياسياً ودينياً مع العالم الاسلامي في آسيا وشمال افريقيا . وهم حساسون للنقد الذي كثيراً ما يوجه اليهم من ان المسلمين الحقيقيين في الاماكن الاخرى لا يعترفون بهم ، لا هم ولا الجماعات المسلمة « الشرعية » التي هاجرت الى امريكا واحتفظت بالتعاليم والطقوس الدينية التراثية . وقد قام ايليا محمد في ١٩٥٩ برحلة الى افريقيا والشرق الادنى مع عدد من اتباعه وقال انه ادى فريضة الحج الى مكة ، لكن هناك من يسخرون من زعمه هذا .

وقد تبادل ايليا محمد الرسائل مع عدد من رؤساء الدول بما فيها غانا ومصر . وقام بعض المسلمين من رعايا دول من الشرق الادنى ، بصورة فردية ، بوظيفة معلمين او مستشارين غير رسميين لدى « امة الاسلام » ، وادعى البعض ان الحركة مرتبطة من بعض النواحي بحكومات بلد اسلامي او اكثر . لكن ان صح انه كانت هناك مثل هذه العلاقات فانها لم تكن جدية او ثابتة - ومن الواضح ان ايليا محمد يدير حركته لزواج امريكا فحسب ، ولا يسمح لأحد آخر في امريكا او في سواها بأن يتدخل في ادارة حركته . وعندما قيل مؤخراً ان شخصية اسلامية في السعودية العربية قد انتقدت تعاليمه ردّاً قائلاً : « ليس ثمة

مسلم في السعودية العربية له سلطة على منعي من نشر رسالتي التي انتدبني اليها الله ، كما لم يكن لهم من سلطة على منع نوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد .
ويسعى المسلمون الى تدريس اللغة العربية والتعاليم الاسلامية في مدارسهم الابتدائية والثانوية ، لكنهم لم يحققوا في ذلك نجاحاً ظاهراً . وكثير من زعمائهم واسعو الاطلاع ، لانهم يحاولون على الدوام العثور على ادلة علمية وتاريخية تثبت مزاعمهم بخصوص عظمة السود وإثم البيض .

استخدامهم العلم والاسطورة - والعلاقات العامة

وقد أتقن المسلمون السود فن العلاقات العامة وعرض صورة معينة عن الحركة في اذهان الزنوج والبيض . فهم يشيرون على الدوام الى ايليا محمد كشخص لطيف وديع في كلامه ، والى « ثمرة الاسلام » كفضة مهيبة رياضية نظامية ، والى النساء المسلمات بأنهن جيلات وعفيفات ومقتدرات ، والى اجتماعاتهم بأنها حسنة الترتيب ومسالة . وقد استعان المسلمون بخدمات شركة زنجية تعنى بالعلاقات العامة . ويطيب لهم ان يشددوا على الاهتمام الذي يبديه الشرطة وسواهم من الموظفين بزعماء المسلمين .

ولا يتردد المسلمون عن استعمال علوم البيض لفائدتهم هم ولفائدة الزنوج . وقد لام ايليا محمد الزنوج مرة لأنهم يلجأون الى البيض سنداً لأرائهم . قال : « أينبغي ان تقتبسوا دائماً رجلاً ابيض للأشياء البارة او الحكمة التي تقولونها ؟ متى سمعتم عن رجل ابيض اقتبس رجلاً اسود في نظركه للحياة ؟ ابدأوا من الآن باقتباس رجل من بينكم انتم » . لكن ذلك العدد نفسه من مجلة « محمد يتكلم » الذي اورد هذه الاسطر اقتبس ثلاث مجلات امريكية « بيضاء » !

هذا الاحترام للكلمة المطبوعة هو رد فعل لحرمان الزنوج من التعليم مدى قرون ، ولل فكرة الشائعة بأنهم غير قادرين على التعلم . ويقول ايليا محمد انه قبل استعباد السود كانوا قد « أتقنوا الرياضيات والفلك وعلوم الحياة الجوهرية الاخرى » . وهو يعتقد ان الرياضيات علم أساسي ، وقال لي احد اتباعه وهو استاذ للرياضيات في احدى كليات الزنوج : « ان الرياضيات والاسلام متساويان . انها الشيء ذاته . انها متعادلان » . وقال

ان البيض وخاصة في الولايات الجنوبية يقولون للزواج ان العلوم ليست في متناول فهمهم؛ قال : « ان الرياضيات هي المفتاح الذي يفتح به العالم ، وهذا هو السبب الذي جعل البيض يحاولون ان يبعده عن المسمّين زواجاً » .

وعندما يذكر ايليا محمد لأتباعه ماذا يأكلون وكيف يأكلون ، فان في بعض ذلك شبهاً بما كان يقوله الشريف درو علي . فهو يؤنبهم : « كفوا عن الشره في الأكل الذي يؤول بكم الى حتوفكم وعن تناولكم ثلاث وجبات او اربعاً كل يوم . كلوا وجبة واحدة في اليوم ، وكلوا احسن الاطعمة » . ويحذّرهم ايضاً من تناول الطعام من اللعب والصفائح . وتحذّرهم جريدتهم من ان « عقوبات ستفرض على المسلمين الذين يتبين انهم أثقل وزناً مما يجب » .

ويقوم اتباع ايليا محمد ، كجزء من ولادتهم الجديدة ، بهجر الاسماء الانكلوسكسونية القديمة التي أطلقها ارباب العبيد الامريكيون على أسلافهم ويتخذون لهم أسماء جديدة . والرسول نفسه ، كما أخبرني ، كان اسمه في الاصل ايليا بول . وهناك عادة شائعة ، وهي ان يستعيب الملتحق بهم عن « اسمه في العبودية » باسم بسيط للعائلة هو اكس - وعندما يحدث ان يوجد عدد من الاشخاص لهم الاسم الاول ذاته فانهم يضعون أرقاماً متسلسلة قبل اسم العائلة اكس : فهناك مثلاً جيمز ٢ اكس وجيمز ٣ اكس الخ . وقد خاطب مالكولم اكس مستمعيه مرة بقوله : « لماذا علينا نحن الافريقيين ان نحمل الاسماء التي أعطانا اياها ارباب العبيد ؟ هل رأيت قط اورياً ابيض يسمى نفسه كازافوبو ؟ »

ليس بالامر العسير الوصول الى تعليل لاتخاذ بعض الزواج الاسلام ديناً او سبيلاً للتعبير عن حقهم على البيض او على المسيحية . فالدين غالباً ما يختلط بالاحتجاج الاجتماعي ، والأديان المختلفة تستهوي بشكل خاص المحرومين واللامنتمين . والدين ، وخاصة في امريكا ، وسيلة مناسبة تتخذها وتحتمي بها الجماعات التي تنشئ تبديلات جذرية .

وقد كانت في الاسلام امور كثيرة تجتذب الزواج ، المتدينين بشكل عميق رغم نفورهم من المسيحية . فالاسلام في نظر زواج امريكا لا علاقة له بالرق ، وارباب العبيد والمدافعون المتدينون عنه في امريكا كانوا دائماً من المسيحيين . كما ان الاسلام ظل قروناً يحارب المسيحية ، التي تعتبر دين البيض ، وتغلب عليها لفترات طويلة من الزمن في آسيا وافريقيا بل وفي اوربا . والاهتقاد الشائع هو ان العرب والمسلمين محاربون اشداء بوسائل نشر دینهم بحد السيف . وهناك عنصر آخر حجب الاسلام اليهم ، هو تمجيده للرجل كرأس

للعائلة . فحياة الزوج في امريكا ، قبل العبودية وبعدها ، كانت تحقر الذكر ؛ فكان لا يقوى على ان يحقق على التام الدور الذي اتخذه لنفسه كمعيل للعائلة وحامٍ لنسائه واولاده . وكان يسهل على الرجال البيض الوصول الى النساء الزنجيات ، في حين ان السلطات الحكومية والفردية كانت منظمة بشكل يمنع الرجال الزوج من الاتصال بالنساء البيض . فكانت النساء الزنجيات عن طريق جاذبيتهم الجنسية اقرب دائماً الى مصدر القوة ، اي الرجل الأبيض ؛ كما ان الاشغال التي كانت في ميسور النساء جعلتهن في وضع افضل من وضع ازواجهن للحصول على مهن اقل وضاعة . اما الاسلام فانه لم يشدد فحسب على التزامات الذكر القاسية بل ايضاً على امتيازاته الاكثر ومقامه الاعلى . ولهذا كانت من المفارقة ان ظروف الحياة الامريكية جعلت بعض الزوج يشعرون ان ديناً غريباً يمكنهم من الاقتراب اكثر من طريقة الحياة العائلية كما تمارسها الطبقة المتوسطة في امريكا .

« التفرقة ؟ لنفترق كليةً والى الابد »

هل تكون حصيلة هذا كله ديناً ما ، ديناً يشابه ما تعارف العالم على تسميته بالاسلام؟ ان الاسلام ليس فيه سلطة مركزية لها الحق في قبول من يطلبون الانتماء اليه او رفضهم . فكل من يتقبل المعتقدات الاسلامية ويقوم ببعض الطقوس المرسومة له الحق في ان يسمى نفسه مسلماً . وليس مهماً من ناحية عملية ان نقرر هل يعتبر اتباع ايليا محمد مسلمين حقيقيين ام لا - فهناك بعض الطوائف الاسلامية التي لا تنظر بعين الرضى الى سواها ولا تعتبرها من الدين نفسه ، كما انه بالنسبة للكثير من مسلمي آسيا والشرق الادنى لا يزال الاسلام المرعي في القبائل الافريقية التي اعتنقته قبل قرون يبدو امراً غريباً . لكنهم جميعاً مسلمون . وأخطر تهمة توجه للمسلمين السود هي انهم يقصرون دعوتهم على فئة لا سواها: فالاسلام التراثي لا يستثني عنصراً او لوناً او امة - بل ان هذا هو احد الاسباب التي جذبت ايليا محمد واتباعه اليه . لكن هذا التناقض لا يقلقهم ، وهم يصرون على اعتبار اسلامهم هم وقفاً على الامريكيين « المسمين زنجياً » .

وكثيراً ما يطرح السؤال : هل يؤمن فعلاً ايليا محمد او مالكولم اكس بنظام الكون والتاريخ الطبيعي الذي يقول به الرسول ؟ ولا أجد مبرراً للشك في ذلك . فهل يؤمن

المسيحيون واليهود والمسلمون بنظام الكون الذي تقول به التوراة والقرآن ؟ وقد يقال ان ايليا محمد « مريض » ان كان يظن انه على اتصال بالله : لكن هذا بالضبط ما كان يقوله غير المؤمنين عن كل زعيم ديني في الماضي . وصحيح ان كثيراً مما يقوله غير مفهوم ، لكن كثيراً مما في التوراة والقرآن هو كذلك ؛ ولعل التفسيرات التي من شأن العقول الجبارة ان تعطيها له خلال آلاف السنين ستفعل له ما فعلته للأديان الاخرى .

ان مستقبل المسلمين السود مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدرتهم الدينية على الاجتذاب ومرتبطة ايضاً وبالطبع بواقع حياة الزوج . وانا لا اعتقد ان بإمكانهم ان ينموا ويتسعوا كثيراً : لأنه ينبغي عليهم ان يحتفظوا بصفتهم الدينية كي يظلوا متميزين - وانا هي هذه الصبغة الدينية ذاتها التي تصد عنهم الناس في هذا العصر العلماني . ولعل المسلمين سيواجهون أزمة خطيرة عندما يحين الوقت للثور على خلف لايليا محمد . فكيف سيحدد وضع الزعيم الجديد ؟ وهل ستصبح الحركة اكثر نشاطاً سياسياً ؟ وكيف ستتخطى وضعها الحالي ، وضع فئة صغيرة ضيقة شديدة التماسك لمجرد انها تتطلب من افرادها الشيء الكثير ؟ انا افترض بهذا بالطبع ان دين ايليا محمد لن يصبح الدين الذي يعتنقه جميع الزوج الامريكيين . واعتقد ان عصر الحركات الدينية التي تفتح العالم قد انقضى ، لكنني اعتقد ايضاً ان المسلمين السود قد حركوا موجة هوائية من النوع الذي كان في الماضي يغمر العالم بأسره . مثل هذه الافكار كانت تنتشر ، كما فعلت المسيحية والاسلام ذاتها ، عبر حضارات غريبة عن الحضارة التي نشأت فيها . لكن هناك أمثلة كثيرة على الفشل ، بل ان النجاح كان يتخلله الفشل . فالمسلمون الذين انبثقوا من الجزيرة العربية فشلوا في اكتساب اليهود لدينهم ، وكذلك فشل المسيحيون في اكتساب المسلمين . وان نجحت ديانة ما فهي حركة روحية انعاشية عظيمة تكشف عن مقاصد الله ، لكنها ان فشلت فهي جماعة وملة تبعث في غير المؤمنين التسليمية . ان المسلمين السود يقدمون للزوج طريقة للتكيف مع مقتضيات حياة صعبة . فعالم البيض يقول لهم انهم لم يبقوا افريقيين ، لكنه يرفض ان يسمح لهم ان يصبحوا امريكيين تماماً . وعالم البيض يستخف بمأضي الزوج وينكر عليهم مستقبلاً يفتخرون به . فكان رد المسلمين السود على هذا : « لنفترق ولننصل كليةً الى الابد » .

وهذا شيء مفجع في عالم اخذت جميع الاجناس فيه تضحي لا أقل اعتماداً بل اكثر اعتماداً واحداً على الآخر ، سواء كان باعث هذا الاعتماد العداء او كان الصداقة .